رأي القدس

بلير والترويج لقيم العدوان

■ يستمتع توني بلير رئيس وزراء بريطانيا بنحت التعبيرات والاوصاف الضخمة للايحاء بمدى خبراته في السياسات الدولية، في محاولة من جانبه لخداع مستمعيه، وتحويل الانظار عن الكوارث التي نتجت عن هذه الخبرات، خاصة في منطقة الشرق الاوسط.

يوم امس الاول وقف توني بلير محاضرا في لوس انجيليس، ومسهبا في استخدام التعبيرات الكبيرة الخالية من اي مضمون، مثل قوله ان الحملة العسكرية الامريكية ـ البريطانية في افغانستان والعراق لا تهدف الى تغيير الانظمة، وانما القيم ايضا.

ولا نعرف من الذي اعطى توني بلير ورئيسه جورج بوش مثل هذا التفويض لتغيير قيم شعوب منطقة تعود خلفياتها الحضارية الى اكثر من سبعة آلاف عام، اي قبل ان تظهر كل من بريطانيا وامريكا الى الوجود كمراكز حضارية مأهولة.

توني بلير يمارس الكذب والتخبط مرة ثانية وثالثة، عندما يتحدث في الخطاب نفسه عن وجود قوس تطرف في المنطقة يمتد من ايران وحتى لبنان، ويقترح مواجهته بتحالف للمعتدلين، يضم انظمة عربية الى جانب الولايات المتحدة وبريطانيا، وربما اسرائيل ايضا.

التطرف الذي يسود المنطقة، ويحذر منه توني بلير حاليا ويريد مواجهته، هو نتاج السياسات الخارجية الكارثية التي تنتهجها الولايات المتحدة في المنطقة، وخاصة في العراق وافغانستان وفلسطين.

فهذه السياسات التي ادت الى تدمير بلدين مسلمين وقتل اكثر من مئتي الف من ابنائهما، وتحويلهما الى دولتين فاشلتين، هي التي توفر المادة الخصبة للجماعات المتطرفة، وتهدد استقرار العالم بالتالي.

التحالف البريطاني ـ الامريكي لم يغير قيما في المنطقة، وانما اكد قناعات متأصلة بان هذا التحالف يخوض حربا صليبية فعلا ضد العرب والمسلمين، لانه تحالف قائم على العدوان والمجازر البشرية، وتكريس الهيمنة الاسرائيلية ـ الامريكية بالقوة المسلحة.

المنطقة العربية التي يريد توني بلير تغيير قيمها هي التي قدمت للعالم العديد من الانجازات العلمية الابداعية في مختلف الحضارات، وفوق هذا وذاك احتضنت رسل البشرية ودياناتها الرئيسية الثلاث.

فاذا افترضنا ان القيم السائدة حاليا في المنطقة والمنبثقة من عقيدتها الاسلامية السمحاء سيئة وتحتاج الى تغيير، فان السؤال هو عن القيم الجديدة التي يريد بلير زرعها مكانها، هل هي قيم العدوان والتدمير ومساندة قتل الاطفال والنساء وتدمير البيوت فوق رؤوسهم، مثلما يحدث حاليا في العراق ولبنان وفلسطين؟

بلير هو الذي يحتاج الى تغيير قيمه وافكاره بعد ان اتضح للعالم بأسره، وللشعب البريطاني خاصة، انه رجل مارس الكذب والخداع اكثر من مرة في السنوات العشر الماضية، وآخرها احاديثه عن اسلحة الدمار الشامل العراقية ووعوده المتكررة باقامة دولة فلسطينية مستقلة لتخدير الرأي العام العربي، وتسويق الحرب التدميرية على العراق.

المنطقة ليست بحاجة الى قيم الكذب والخداع، وقتل الابرياء وتدمير دول فوق رؤوس اهلها التي يروج لها المستر بلير، وانما بحاجة الى قيم العدالة والمساواة والصدق التي يفتقر اليها وحليفه جورج بوش. وتكفي الاشارة الى أنه وطوال خطابه لم يتعاطف مطلقا مع ضحايا المجازر الاسرائيلية في لبنان، ولم ينطق مطلقا وعلى مدى اكثر من ساعة في خطابه عبارة «وقف اطلاق النار».

لماذا يجب ان يحتفظ حزب الله بسلاحه؟

على الشعوب العربية والإسلامية ان تحمل عبء الدفاع عن نفسها

د. بشير موسى نافع *

■ يتمحور الجدل والتفاوض المتعلق بوقف العدوان على لبنان حول مسألتين رئيسيتين: بسط سيطرة الدولة اللبنانية على الجنوب، ووضع قوات دولية على الحدود اللبنانية ـ الإسرائيلية، وربما حتى اللبنانية ـ السورية. الهدف في الحالتين واحد وهو إبعاد حزب الله عن الحدود، وتجريده من مسوغ الاحتفاظ بسلاحه، ومن ثم تجريده من هذا السلاح. الحقيقة، ان احتفاظ حزب الله بسلاحه أصبح مسألة حياة أو موت بالنسبة للبنان والمنطقة ككل. بل أكثر من ذلك، فقد بات على الشعوب العربية، لاسيما تلك المجاورة للحدود الفلسطينية، والشعوب الإسلامية كافة، ان تتسلم مهام الدفاع عن نفسها، أن تدفع محيط دولها إلى الخلف، وان تبادر إلى إدارة أوسع مجال ممكن من شؤونها بنفسها.

الذين كانوا يطالبون حزب الله بالتخلي عن مواقعه في الجنوب اللبناني والتخلي عن سلاحه طوال العام الماضي احتجوا بضرورة الركون إلى الشرعية الدولية لتحقيق ما تبقى من مطالب لبنانية؛ ولم يكن خافياً ان أصحاب هذا المنطق كانوا مطمئنين لعلاقاتهم الجيدة بالقوى الدولية الرئيسية، من الولايات المتحدة إلى فرنسا. حزب الله، كما كان قد أعلن مراراً، نفذ عملية محدودة في الثاني عشر من هذا الشهر لتحرير الأسرى اللبنانيين. ولكن الرد الإسرائيلي جاء بشعاً ومدمراً، تغطيه القوى الدولية ذاتها التي اعتقد طيف واسع من السياسيين اللبنانيين أنها ستوفر الحماية للبنان. من مرواحين إلى قانا، ومن مارون الراس وبنت جبيل إلى عيترون وصور والخيام، يقوم الوحش العسكري الإسرائيلي المتعطش لدماء العرب والمسلمين بتدمير لا مثيل له في تاريخ الحروب بالمنطقة. القصف الذي يتعرض له لبنان موجه في جله ضد لبنان كوطن ودولة وشعب. عندما يقتل الأطفال في مضاجعهم، عندما تدمر الجسور والطرق والمعامل ومحطات توليد الكهرباء والموانئ ومعسكرات الجيش، تصبح الدولة واللبنانية هي المستهدفة وليس حزب الله. والدولة اللبنانية تولت شؤونها منذ زمن حكومة صديقة لواشنطن وباريس. فكيف يمكن ان يصبح أمن ومستقبل وحياة اللبنانيين مقصوراً على قرار الدولة والحكم؟ القوة الوحيدة التي تقف في مواجهة آلة الموت والدمار هي المقاومة اللبنانية. سلاح الشعب، سلاح حزب الله، هو وحده الذي يحمي لبنان وشعبه، ويوقع الهزيمة تلو الأخرى بالجيش الإسرائيلي. لا القوى الدولية الصديقة للزعماء اللبنانيين ولا الجيش اللبناني تستطيع حماية لبنان. القوى الدولية، وبدرجات متفاوتة، تقف في صف الدولة العبرية؛ ما قد تختلف فيه مع الأهداف الإسرائيلية يتعلق في أغلب الأحيان بالوسائل والطرق لا بجوهر الأمور. أما الجيش اللبناني، فلم يسمح له أصلاً بامتلاك القوة الضرورية للدفاع عن البلاد، وهو فوق ذلك جيش بلد كان دوماً أسير توازنات إقليمية ودولية قيدته وتقيده بسقف حركة ومبادرة منخفض وضيق.

الطريقة والوسائل التي رد وبها حزب الله على العدوان لا تستطيعها الدولة اللبنانية، لا سياسياً ولا عسكرياً. قرار الدولة مقسم على قوة سياسية عديدة، بعضها قد يكون أقرب لمعسكر العدو منه إلى المصالح الوطنية والعربية. ولبنان الدولة حريص على الارتباط بما تبقى من أمل بالنظام الدولي ومواثيقه. وفوق ذلك كله، فإن الأنظمة العربية الحديثة عجزت دوماً عن مواجهة الدولة العبرية، الدولة المسلحة إلى أسنانها والمتمتعة بدعم أمريكي وغربي واسع النطاق. بدون حزب الله لم يكن من الممكن تحرير الجنوب اللبناني في 2000، وبدون حزب الله ما كان يمكن للبنان ان يقف هذا الموقف الشجاع للدفاع عن نفسه. العدوان الإسرائيلي المستمر طوال ثلاثة أسابيع قدم الدليل الأبلغ على ضرورة ان يحتفظ الحزب بسلاحه، بل وضرورة ان يتسع نطاق التسلح الشعبي في لبنان على نطاق الجنوب اللبناني كله، مسيحييه وشيعته وسنته. التسلح لن يوفر للبنان القدرة على الدفاع عن نفسه وحسب، بل وردع الدولة العبرية ودفعها إلى التفكير عشرات المرات قبل ان تشن حرباً أخرى في المستقبل.

وليس هناك من شك في ان العدوان على لبنان قد أثار العرب والمسلمين كافة، لا سيما في دائرة الصراع التاريخية مع المشروع الصهيوني. كما ان ليس هناك من شك في أن الغضب الذي اشتعل في الشارع العربي ضد الأنظمة العربية هو غضب مبرر. الأنظمة العربية، لاسيما أنظمة الدول العربية الرئيسية، تنفق بسخاء ومن قوت الشعب وثرواته على التسلح والمؤسسات الأمنية. ولكن الشعوب لا ترى وظيفة لجيوشها ولا مؤسساتها الأمنية إلا قمع القوى الداخلية المعارضة أو التحوط من الدول العربية المجاورة. والعدد الأكبر من الأنظمة العربية يحتفظ بعلاقات وثيقة بالقوى الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة. ولكن هذه العلاقات لم توفر حماية للبنان وفلسطين، ولا حتى للأطفال اللبنانيين والفلسطينيين. إضافة إلى ذلك، عقدت دولتان عربيتان معاهدتي سلام مع الدولة العبرية، بينما ترتبط دول أخرى بعلاقات دافئة بالإسرائيليين، على هذا المستوى أو ذاك. وبالرغم من ذلك، فليس ثمة دليل على ان هذه العلاقات تلعب دوراً ما في كبح جماح الوحش الدموي الإسرائيلي المسلح. على العكس، باتت هذه العلاقات تستخدم لتوفير غطاء عربي للعدوان الإسرائيلي على العرب. الغضب العربي والإسلامي الشعبي مبرر بالتأكيد؛ ولكن السياق الذي يأخذه هذا الاستهداف الاستئصالي للعرب والمسلمين، والتاريخ المحبط للدور الذي تعهدته الدول العربية والإسلامية في مواجهة المشروع الصهيوني يتطلب نمطاً جديداً ومختلفاً من التفكير والعمل الشعبي.

يمر العرب بواحدة من أكثر فترات تاريخهم حرجاً؛ إذ تتمتع المنطقة العربية بمستويات من التعليم والمعرفة والثروة والطاقات الإنسانية والطبيعية لم تتمتع بها منذ بداية العصر الإمبريالي. ولعل هذا ما يفسر بشاعة الهجمة التي يتعرضون لها، والسعي الدموي الوحشي الذي يصل إلى حد الإبادة لمنع خروجهم من عنق الزجاجة التاريخي. في المقابل، تقدم الدولة العربية الحديثة، من مرحلة إلى أخرى، الدليل تلو الآخر على عجزها عن الدفاع عن شعبها وبلادها. الدولة العربية عاجزة عسكرياً، وقد عانت هذه الدولة من الهزيمة في كل مواجهاتها مع الدولة العبرية. الفرق الوحيد بين مواجهة وأخرى كان مستوى وعمق وكلفة الهزيمة. وتبدو الدولة العربية وكأنها تخلت عن النظام العربي، وقد ترك كبارها الشعوب الصغيرة منفردة في مواجهة توازن قوى عالمي ظالم. الدولة العربية عاجزة عن صناعة الرفاه لشعبها، سواء على مستوى السياسات أو على مستوى التصدي لقوى النهب العالمية. تدير الدولة العربية مؤسسة تعليمية قاصرة، ودبلوماسية هزيلة، وسياسات عمل لا ترقى بالأمم الكريمة، وقضاء يفتقد إلى ركائز العدل والإنصاف. الأغلبية العظمى من الإنجازات العربية تتحقق بمعزل عن الدولة، في القطاعات التعليمية والاقتصادية الخاصة، أو بمبادرة من القوى الشعبية. بغض النظر عن الجدل الواسع الذي أثارته تصريحات زعماء ومسؤولين عرب في الأيام الأولى من الحرب، فإن دولة عربية واحدة لم تستطع ان تساهم مساهمة ملموسة في إيقاف العدوان على لبنان، لا عسكرياً ولا سياسياً ولا دبلوماسياً؛ بل ان التحركات العربية لم تبدأ إلا بعد انفجار الغضب الشعبي العربي. ثمة خلل جوهري في بنية الدولة العربية، خلل هو في أساس هذا العجز والإخفاق. وهذا ما يستدعي نهجاً جديداً للعمل الشعبي.

أولاً: على الشعوب العربية وقواها الشعبية ان تسعى فعلاً وفوراً وبتصميم لا يلين إلى التسلح، بموافقة الدولة أو بعدم موافقتها.